

النص والمعنى في النظرية البنيوية

The Text and Meaning in Structuralist Theory



محمد بوحجلة*

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف

الفلسفة وتاريخها، جامعة وهران 2

akramaladin-2013@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2025/08/20 تاريخ القبول: 2025/10/21

ملخص:

مرّت المناهج النقدية بمحطات تاريخية عديدة بدءاً من تلك القواعد النقدية الصارمة التي وضعها أرسطو في كتابه "فن الشعر"، والتي ظلت معتمدة في تفسير النص إلى غاية القرن 17، وبعدها ظهرت مناهج نقدية حديثة جديدة عرفت بالمناهج السياقية، حاولت تفسير النصوص من خلال سياقها التاريخي أو الاجتماعي أو النفسي للكاتب، وفي القرن العشرين بدأ الاهتمام باللغة وظهرت مدارس لغوية جديدة من أبرزها المدرسة الشكلانية (من موسكو إلى براغ) بقيادة رومان جاكوبسون Roman Jakobson، ومعها ظهرت مناهج نقدية جديدة تهتم بدراسة البنية اللغوية للنص، من أبرزها المنهج البنيوي Le structuralisme. وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على أسس وإجراءات هذا المنهج في تفسير النص. الكلمات المفتاحية: البنيوية، التحليل النفسي، الأنثروبولوجيا، النص، المعنى.

Abstract:

Critical methodologies have undergone multiple historical stages, beginning with the rigorous critical rules established by Aristotle in Poetics, which remained authoritative in text interpretation until the seventeenth century. Subsequently, modern critical approaches emerged, known as contextual approaches, which sought to interpret texts through their historical, social, or psychological contexts. In the twentieth century, scholarly attention shifted to language, leading to the rise of new linguistic schools, most notably the Formalist school (from Moscow to Prague) under the leadership of Roman Jakobson. In parallel, new critical methodologies developed that focused on examining the linguistic structure of the text, the most prominent of which was Structuralism. This paper aims to shed light on the theoretical foundations and analytical procedures of this approach in interpreting texts.

Key words: Structuralism, Psychoanalysis, Anthropology, Text, Meaning

* المؤلف المراسل: محمد بوحجلة

مقدمة:

لاشك أن لكل تعبير مهما كان نوعه، سواء أكان فنّيًا على شكل نصّ شعري أو قصّة أو رواية، أو على شكل رسم أو نحت أو موسيقى، أو كان تعبيرًا دينيًا على شكل نصّ نقلي أو طقس من الطّقوس، أو كان فلسفيًا أو علميًا، إلّا وله تفسير ما، على شكل معنى محدّد ثابت أو معاني متعدّدة، وقد اجتهد المفكرون من أجل وضع وتأسيس مناهج يمكن استخدامها في تفسير مختلف أنواع التّعبير الإنساني، ولعل من أشهر هذه المناهج ما يعرف بالمناهج السياقية، والتي تركز في آلياتها وإجراءاتها في تفسير تعبير ما على السّياق التّاريخي أو الاجتماعي أو النّفسي، ولكن في القرن العشرين ظهرت مناهج جديدة تركز على تحليل البنية اللّغوية للتّعبير أو النّص "الأدبي" بعيدا عن سياقاته التّاريخية والاجتماعية والنّفسية، وتعرف بالمناهج النّصية، ومن أشهرها ما يُسمّى بالمنهج البنيوي، الذي عرّف معه النقد الأدبي تحولا كبيرا في اتجاه تجاوز السلطة السياسية والاجتماعية وسلطة المؤلّف إلى ترسيخ "سلطة النص"، إذ كان الإعلان عن "موت المؤلّف" من طرف أقطاب البنيوية إيدانا بتحرر الفكر النقدي من سلطة المتكلم أو الناطق بالنص والتركيز على مسرح الكلام أو النص ذاته، من خلال التعامل مع النص باعتباره "بنية مغلقة مكتفية بذاتها" وفصله عن الذات المنتجة وسياق الإنتاج، أي ان الدراسة البنيوية للنص، تعني تحليل ودراسة بنيته الداخلية من حيث اللغة، والعلاقات بين عناصره، دون الالتفات إلى نية المؤلّف أو ظروفه أو أثر النص في القارئ أو المجتمع، لأن المنهج البنيوي يرى أن النص بنية مغلقة على نفسها، يمكن فهمها فقط من خلال تحليل مكوناتها وعلاقاتها الداخلية، وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضّوء على هذا المنهج وإجراءاته التطبيقية، محاولين الإجابة عن التّساؤلات التّالية: ماهي البنيوية؟ ماهي أهم المحطات التّاريخية التي مرّ بها المنهج البنيوي؟ وماهي أهم أسس وإجراءات وآليات هذا المنهج في تفسير النّص؟ وماهي أهم الانتقادات التي وجهت إليه؟ وإلى أي مدى يمكن استخدام المنهج البنيوي في تفسير النّصوص العربيّة بخصوصيتها الثقافية؟

أولا: مفهوم البنيوية وأهم تياراتها وروادها

يحتل المنهج البنيوي مكانة مركزية في الفكر الفلسفي المعاصر من جهة، وفي المناهج النّقدية المعاصرة من جهة أخرى، ولكن قبل التّطرق إلى أسس وإجراءات وآليات هذا المنهج في تفسير النص والحديث عن أثره في الفكر الغربي والعربي، نود التّوقّف في البداية عند محطة المفاهيم والسّياق التّاريخي والفكري لهذا المنهج.

1: مفهوم البنيوية Le structuralisme: ما هي البنيوية؟

يعد مصطلح البنيوية من أهم المصطلحات المتداولة جدا عند النُفُسانيين وعلماء الاجتماع واللغويين والفلاسفة، ولكن قبل معرفة مختلف معانيه الاصطلاحية سنحاول أن نضبط ونحدد معناه اللغوي والاشتقائي، إذ تُعرَّف كما يلي: «البنيوية» في اللغة العربية مشتقة من الفعل الثلاثي: "بني، يبني، بناية، بناء، وبنية"، وبنية الشيء في اللغة تعني "تكوينه"، وتعني أيضا "الكيفية" التي شُيِّدَ عليها هذا البناء أو ذاك، وتستخدم كلمة "البنية" "Structure"، حين نتحدث عن البناء الاجتماعي أو اللغوي أو بناء الشخصية، ونشير بذلك إلى وجود نسق عام، أهم ما يتصف به هو النظام، ومن هنا فإن التعريف المبدئي للبنيوية أو البنية هو مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عدد لا حصر له من النماذج» (جعفر، 1989، ص، ص، 1، 2).

إذا انتقلنا من التعريف الاشتقائي الذي ليس هو محل اختلاف إلى التعريف الاصطلاحي فإننا نجد تعريفات عديدة ومختلفة للبنيوية، تختلف حتى بين من يطلق عليهم اسم البنيويين أنفسهم، منهم من يعتبرها منهجا، ومنهم من يعدُّها علما، وآخرون يصفونها بكونها فلسفة أو ابستمولوجيا أو إيديولوجيا، وفي هذا الصدد يقول زكريا ابراهيم: «الكثير من البنيويين، وعلى رأسهم العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس أعلنوا منذ البداية أن "البنيوية" ليست بأي حال من الأحوال فلسفة، وإنما هي مجرد منهج للبحث العلمي، ويتفق معه في ذلك عالم النفس السويسري جان بياجيه الذي قال في ختام كتابه عن البنيوية "قصارى القول أن البنيوية منهج لا مذهب"» (ابراهيم، دت، ص، 21)، وعلى العكس من ذلك نجد فرانسوا شاتليه، وهو من أشد المتحمسين للبنيوية، ينفي صفة المنهج عنها، «ويعرب عن رأيه بصراحة ويقول "إنه ليس ثمة مذهب بنيوي، بل ربما كان في استطاعتي أن أذهب إلى حد أبعد من ذلك، فأقول إنه ليس ثمة هناك منهج بنيوي، إن السمة المميزة للفكر البنيوي، هي في الواقع حرصه الشديد على التزام حدود العلمية التامة» (ابراهيم، دت، ص، 22)، ومعنى هذا أن شاتليه يميل إلى اعتبار البنيوية علما لا منهجا أو فلسفة.

وخلافا لذلك يصنف بعض الباحثين البنيوية على أنها مجرد فلسفة أو ابستمولوجيا أو إيديولوجيا، «الواقع أنه حينما صدر سنة 1966 كتاب "الكلمات والأشياء" لفوكو من جهة، والكتاب الضخم "كتابات" للاكَّان من جهة أخرى، وهما كتابان أحدثا ضجة في عالم الفلسفة، وحظيا بالكثير من الاهتمام من طرف النقاد، هذا الحدث المزدوج قد تسبب في انزلاق "البنيوية" من مجال "المنهجية العلمية" إلى مجال "الإيديولوجيا"، وآية ذلك أن المنظور الفكري الذي انطوت عليه هذه البنيوية الجديدة هو رفضها لكل "نزعة إنسانية"، وإعلانها "موت الإنسان"» (ابراهيم، دت، ص، 22).

أما المفكر الفرنسي المعاصر جيل دولوز فحاول أن يعطي للبنوية تعريفا اصطلاحيا يشمل كل المفاهيم السابقة أو بلغة المنطق "تعريفا جامعا مانعا"، ففي محاولته الإجابة عن السؤال الأساسي في هذا المجال: مالذي يجمع بين الدراسات البنوية في مضمار علم اللغة، والأنثروبولوجيا، والتحليل النفسي، والفلسفة والابستمولوجيا والإيديولوجيا، والنقد الأدبي؟، يرى دولوز أن «هناك سمات مشتركة تجمع بين كل المنتسبين إلى الحركة البنوية، ومن بينهم ياكبسون "عالم اللغة"، وليفي-ستراوس "عالم الاجتماع"، ولاكان "المحلل النفسي"، وفوكو "الفيلسوف المجدد للإبستمولوجيا"، وألتوسير "الفيلسوف الماركسي"، ورولان بارت "النقاد الأدبي"، وفي مقدمة هذه السمات اكتشاف المجال الرّمزي كمجال ثالث يضاف إلى كل من مجال الواقع ومجال الخيال، والمناداة بنزعة مادية جديدة لا تكاد تنفصل عن اتجاه جديد معارض تماما لكل "نزعة إنسانية"» (ابراهيم، دت، ص. 26)، ومعنى ذلك أن لفظ "البنوية" لم يعد مجرد مفهوم علمي أو فلسفي يتداوله الفلاسفة وعلماء اللغة والأنثروبولوجيون والمحللون النفسيون والمهتمون بالدراسات الاجتماعية والثقافية فقط، بل أصبح له تطبيقات عديدة، ويستخدمه أيضا: «رجل الأعمال، والنقابي، وعالم الاقتصاد، والمربي، والنحوي، والنقاد الأدبي، والمخرج السينمائي، ورجل الإعلام، ومصمم الأزياء...» (ابراهيم، دت، ص. 7).

2: السياق التاريخي والفكري للبنوية "أهم تياراتها وروادها"

البنوية هي حركة فكرية ظهرت في أواخر الخمسينيات في حقل اللغويات والعلوم الإنسانية، وأصبحت «ابتداءً من سنة 1966 حتى اليوم، وربما في المستقبل القريب أو البعيد أيضا، سيدة العلم والفلسفة رقم واحد، بلا منازع، وأصبح الفلاسفة الآن لا يكادون يتحدثون إلا عن "البنية"، و"النسق"، و"النظام"، و"اللغة"» (ابراهيم، دت، ص. 7)، وتعود جذور هذه الحركة إلى عالم اللغويات السويسري فيرديناند دو سوسور **Ferdinand de Saussure** 1857-1913 الذي جمعت أبحاثه ونشرت بعد وفاته، 1916 في كتاب بعنوان "محاضرات في اللسانيات العامة"، وهي الأبحاث التي لعبت دورا كبيرا في ظهور وتطور البنوية لاحقا، تولى دو سوسور عن وجهة النظر التاريخية للغة، وأعطى علم اللغة طابع علمي، مهمته دراسة "اللغة" في ذاتها، فاللغة ليست مجرد مجموعة من العناصر، بل هي "نظام" ووحدة تتمثل فيها العناصر أساسا في علاقة نسقية.

وظهر علم اللغة المعروف بالبنوية مع مدرسة براغ التي تأسست في عام 1929، والتي تضم الشخصيات الرئيسية مثل جاكبسون 1896-1982 Jakoson وتروبيتسكوي 1890-1982 Troubeskoy، بالإضافة إلى الحلقة اللغوية في كوبنهاغن (1931) التي أسسها الدانماركي هيلمسلوف 1899-1965 Hjelmslve، وكل الأبحاث المنجزة في هذا السياق تستند إلى فرضية أن اللغة تشكل "كيانا

ذاتيًا من البنيات الدّاخلية"، وتتمثل المهمة الأساسية لِعَالِم اللّغة في وصف هذا النّظام، وهنا يجب التّعامل فقط مع النّص المدروس في إطاره الدّاتي الدّاخل أو البنيوي، لأنّ المعنى لا يمكن أن ينبع من نية المؤلّف، بل هو نتيجة خالصة للبنية، ويمكن اعتبار وجهة النّظر هذه "وظيفية" للّغة "بالمعنى المنطقي الرّياضي للمصطلح".

وتطورت هذه النّظرية أيضًا مع الطّبيب النّفساني لاكّان Jacques Lacan، 1901-1987 المتخصص خصوصًا في العمل على أمراض الجنون، والذي عاد إلى فرويد من خلال قراءته للفلاسفة وأبحاث اللّغويات البنيوي، والذي ذهب إلى اعتبار الخطاب البشري المجال الذي يجب أن تتوجه إليه تجربتنا المستقبلية في دراسة اللّغة.

أهم تيارات البنيوية: عرفت البنيوية تيارات ومدارس عديدة بتعدد المجالات التي أصبحت موضوعا للفكر والمنهج البنيوي، من علم اللّغة، إلى الفلسفة والأنثروبولوجيا، والتّحليل النفسي، والنّقد الأدبي... وغيرها، وسنركز هنا على مجال أساسي للبنيوية هو مجال الفلسفة والأنثروبولوجيا.

تظهر البنيوية في شكلها الفلسفي "البنيوية الفلسفية" فيما يعرف بأبحاث الأنثروبولوجيا الفلسفية L'anthropologie philosophique، وتعني الأنثروبولوجيا من الناحية الإيتمولوجية "معرفة الإنسان"، وتشير من الناحية العلمية إلى معرفة تدرس الإنسان بصفة شاملة في جميع المجتمعات وفي جميع العصور، وتعود جذور هذا المصطلح في الفلسفة إلى كانط، الذي يرى أنّ هذه المعرفة هي فلسفية ولا يمكن فصلها عن البحث عن الحكمة.

والسؤال المركزي للأنثروبولوجيا في معناها الفلسفي الكانطي هو: ما هو الإنسان؟، وفي هذا السياق، نشر كانط عام 1798، محاضراته تحت عنوان "الأنثروبولوجيا من وجهة نظر عملية"، التي قام بإلقائها على مدى ثلاثين عامًا، وبالنسبة له، تفترض هذه المعرفة أن يكون الإنسان "هدفًا أخيرًا لنفسه"، وبالتالي، فإنها لا تنفصل عن الاعتراف بالإنسان ككائن أخلاقي، قادر على التّعليم والتّقدم خلال تطور الجنس البشري، وتتطلب الأنثروبولوجيا البحث عن الحكمة، وهذه هي مهمة الفلسفة بشكل خاص، ومجمل القول بالنسبة لكانط، تُعتبر الأنثروبولوجيا معرفة عن الإنسان.

ويعرف كانط الأنثروبولوجيا: «مذهب لمعرفة الإنسان، يُعالج بِشَكْلٍ مُنَظَّم، الفسيولوجيا من وجهة نظر عملية، وتميل هذه المعرفة الفسيولوجية لاستكشاف ما تفعله الطّبيعة بالإنسان؛ بينما تتعلق المعرفة العملية بما يفعله الإنسان، ككائن ذي نشاط حر» (Kant, 1979, p, 11).

وتطور الشكل الفلسفي للبنيوية خاصة مع أبحاث ميشال فوكو Michel Foucault في الأنثروبولوجيا الثّقافية L'anthropologie culturelle وأركيولوجيا المعرفة L'archéologie du

savoir، وأركيولوجيا المعرفة هو عمل جينيولوجي لفوكو، يتمحور حول فهم شروط نشوء المعرفة، وتركز دراسته على تحليل الخطاب والقطيعة الابستمية، إذ يعد مفهوم الإبستميه مفهوما مركزيا عند فوكو، ويشير إلى "مجموعة العلاقات" التي يمكن اكتشافها، لحقبة معينة، بين العلوم عندما يتم تحليلها على مستوى "الأنظمة الخطابية"، ويرفض فوكو فكرة الاستمرارية التاريخية كفكرة مؤسسة لتاريخ العلم، ويركز على فكرة القطيعة بين الإبستميات المختلفة، وترتبط أطروحات فوكو بالبنوية، من خلال تحليله لقطيعتين ابستميتين أولهما وقعت في القرن السابع عشر، مع ظهور نظام التّفكير الكلاسيكي، وثانيهما تلك التي حدثت في بداية القرن التاسع عشر، مع ظهور الأنثروبولوجيا كعلم يدرس الإنسان.

وتظهر البنوية في شكلها العلمي "البنوية الأنثروبولوجية" في ما يعرف بأبحاث الأنثروبولوجيا البنوية والاجتماعية L'anthropologie structurale et sociale عند كلود ليفي ستراوس، ففي القرن العشرين، جدد ليفي-ستراوس Claude Lévi-Strauss 1908-2009 الأبحاث في علم الأنثروبولوجيا من خلال التحليل البنيوي الذي طبقه في دراسة للمجتمعات البدائية، ويكمن هدف الأنثروبولوجيا البنوية، كما يعرفها، ليس في مجرد ملاحظة الحقائق بل في بناء "نماذج" استنادًا إلى المواد التجريبية التي تم جمعها خلال رحلاته المتكررة، بما في ذلك بين شعوب الهنود الحمر في أمريكا، درس ليفي-ستروس العادات والطّقوس، وقصص الأساطير خصوصًا في المجتمعات البدائية، لكشف أشكال التنظيم أو الهياكل اللاواعية التي تحكم مؤسساتهم، واستنتج أن الفكر "البدائي"، الذي هو "عملي"، لا يمكن اعتباره تراجعًا بالمقارنة مع الفكر العقلاني أو المنطقي، بل يكشف بدلًا من ذلك عن إحدى أشكال نشاط العقل البشري بشكل عام، ويرفض ليفي-ستروس فكرة تفوق الثقافة أو الحضارة الغربية على الحضارات البدائية، مؤكدًا بدلًا من ذلك على ضرورة الاعتراف بـ "الاختلاف" بين الثقافات. في "أصول طقوس الطّاولَة"، يقوم ليفي-ستروس بتحليل بنيوي للأساطير L'analyse structurale des mythes، والذي شرحه عبر أربعة كتب في سلسلة "الأساطير"، وهنا ركز على تحليل أسطورة هنود توكونا Indiens Tukuna. «من خلال اتباع سير الأسطورة خطوة بخطوة، نصل إلى العديد من الأساطير الأخرى التي تنيرها وتسمح برؤية الروابط العضوية التي تجمعها جميعًا، ونظرًا لأن الكون الأسطوري لمجتمع أو مجموعة من المجتمعات التي تقترب جغرافيًا وتاريخيًا دائمًا يشكل نظامًا مغلقًا، فإننا نعود بالضرورة في النهاية إلى الأساطير التي بدأنا بها» (C. Lévi-Strauss, 1968, p, 9).

تهدف الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية حسب ليفي-ستراوس إلى دراسة الإنسان ككل في جميع المجتمعات وفي جميع العصور، ومع ذلك، لا يشير الأنثروبولوجي إلى مفهوم مجرد للإنسان؛ بل يدرس الإنسان في تنوعه، ما يجعل وحدة الإنسان هو "قدرته العملية اللامتناهية على ابتكار أساليب

الحياة وأشكال التنظيم الاجتماعي المتنوعة للغاية"، ومن خلال اكتشاف ومعرفة الثقافات الأخرى، يتعلم الأنثروبولوجي كيفية التعرف على وجوديات الجماعات الاجتماعية الثقافية، وفي هذا المجال يقول ليفي-ستراوس: « في كل مرة يكون في الحقل، يجد العالم الأنثروبولوجي نفسه في عالم غريب عليه، في كثير من الأحيان معادٍ، ... الهدف الذي يعينه الأنثروبولوجي في معرفة الإنسان، يجب أن يرفض الإنسان نفسه أولاً، ونحن مدينون إلى روسو بالكشف عن هذا المبدأ، الذي يمكن أن تتأسس عليه علوم الإنسان فقط، ولكنه كان يجب أن يبقى غير متاح وغير قابل للفهم طالما سادت فلسفة تأخذ نقطة انطلاقها من الكوجيتو، كانت أسيرة لما يُدعى بالأدلة الواضحة عن الذات » (C. Lévi-Strauss, 1973, T 2 p, 47, 48).

ثانياً: أسس وآليات واجراءات المنهج البنيوي في قراءة وتفسير النص

المنهج البنيوي هو أحد المناهج النّسقية الحديثة التي يهتم بدراسة البنية اللّغوية للنّص بصفة عامة والنّص الأدبي بصفة خاصة، ويعتمد على إجراءات خاصة تتمثل في تقسيم النّص إلى بنيات:

- بنية المستوى الصّوتي والمعجمي والتّركيبي والدّلالي: استخدام المعطيات العلمية التي توصل إليها دي سوسير وغيره من علماء البنيوية اللّغوية، حول ما تعلق بالتمييز بين اللّغة والكلام، وبين الدّال والمدلول، واعتباطية الدّلالة، وكذلك استخدام أبحاث الفونولوجيا التي أدت إلى الكشف عن نسق العلاقات داخل النّظام اللّغوي الواحد، واعتبار اللّغة بنية أو نسقا رمزياً.
- بنية الموضوع، من حيث الشّخصيات والحوار.
- بنية الزّمان والمكان، ودور كل منهما في توليد الدّلالة.

يدرس المنهج البنيوي النّص "الأدبي" من الدّاخل من خلال النّسق الخاص به، واعتباره بنية مغلقة، ودراسة مجموعة العلاقات بين العناصر المكونة للبنية اللّغوية، بغية الوصول إلى معنى محدد للنّص من داخل النّص ذاته، ومن أشهر رواده رولان بارت Roland Barthes الذي نادى بمبدأ "موت المؤلّف"، فماذا تعني فكرة "موت المؤلّف"؟ وهل يعقل أن يلغى المؤلّف؟ وبماذا سيعوّض؟ ولماذا تركّز البنيوية على الاهتمام بالقارئ؟

يدور الكلام في الأوساط البنيوية عن فكرة "موت المؤلّف" إذ « اشتهر بارت بكونه حامل لواء ما يسمّيه "موت المؤلّف"، أي إزاحة هذه الشّخصية عن الموقع المحوري الذي تحتله في الدّراسات الأدبية والتّفكير النّقدي، وقد كتب عام 1968 يقول: نحن نعرف الآن أنّ النّص ليس سلسلة من الكلمات تحمل معنى لاهوتياً مفرداً "رسالة من المؤلّف/الله" بل فضاء متعدد الأبعاد، تمتزج فيه مجموعة من الكتابات، لا يتمتع أي منها بالأصالة، ويتصادم بعضها ببعض، الصّورة، الموسيقى، النّص، فهو يرى أن ما ينبغي لنا دراسته هو النّصوص وليس المؤلّفين، حتى لقب بعدو المؤلّفين » (كولي، 216، ص، 11)، فموت المؤلّف تعني

إلغاء المؤلف أو إبعاده أو حذفه كأصل أو كمصدر، عند محاولتنا تفسير نص ما، وإعطاء الأهمية الكبرى للقارئ، فالقارئ عند البنيويين عموماً وعند بارت خصوصاً هو العنصر الفعال والمهم في إنتاج الدلالة، ودوره لا يقل أهمية عن دور الكاتب لأنه لا يمكن الفصل بين عمليتي القراءة والكتابة، وفي هذا المجال يقول بارت: «إنَّ فعل الكتابة لا يتم دون أن يصمت الكاتب، فعل الكتابة كأن يكون الكاتب "خافت الصوت كالميت"، أن يصير الإنسان الذي رفض له الإجابة الأخيرة، وأن يكتب يعني أن يهب منذ اللحظة الأولى، الإجابة الأخيرة للآخر» (بارت، 1988، ص، 8).

إنَّ البنيوية تهتم بالنص وفقط، بعيداً عن أي مرجعيات تاريخية أو اجتماعية أو نفسية خاصة بالكاتب، أي: فهم النص بعيداً عن قصدية المؤلف، «إن بارت يقطع صلته بالماضي وبكتاب الكتابة في درجة الصِّفر من حيث أنه يقطع الصِّلة بين العمل الأدبي والظُّروف التي أدت إلى إنتاجه، فالأدب غامض بطبيعته، ويقول في هذا: "إن العمل الأدبي لا يحيطه أو يسوّيه أو يحميه أو يوجهه أي موقف، وليس فيه حياة عملية تقول لنا أي المعاني نعطيه» (ستروك، 1996، ص، 71)، وعدم الاهتمام بقصدية المؤلف يترتب عنه مبدأ آخر بعنوان: "ميلاد القارئ رهين بموت المؤلف"، على حد تعبير بارت: «لقد أصبحنا نعلم أن الكتابة لا يمكن أن تتفتح على المستقبل إلا بقلب الأسطورة التي تدعّمه: فميلاد القارئ رهين بموت المؤلف» (بارت، 1993، ص، 87)، وهذا ما يمكن أن نسّميه أيضاً مبدأ "أدبية الأدب"، وهو مبدأ تعود جذوره ومرجعياته إلى المدرسة الشَّكلانية الروسية.

ومن المنظور البنيوي، فإن لغة النص الأدبي، هي لغة فريدة وغير مألوفة تختلف عن لغة الحياة اليومية، هي لغة مليئة بالاستعارات والمشاعر والوجدان، وللنص بنية كلية وبنيات فرعية، البنية الكلية أو الكبرى تشمل النص كلّهُ، وتفسر لنا المعنى العام للنص، أمّا البنيات الفرعية، فهي الأفكار الجزئية للنص، فمثلاً قصة "ألف ليلة وليلة"، بنيتها الكلية أو معناها العام، هو "خيانة المرأة"، أمّا بنياتها ومعانيها الجزئية والفرعية، فهي تلك القصص الخرافية التي كانت تسردها شهرزاد على مسامع الملك شهریار لمدة 1001 ليلة، والتي كانت تتوقف مع الفجر بأسلوب تشويقي يمنع الملك من قتلها رغبة منه في سماع ما تبقى من القصة، رغم أنَّ الملك كان قد أخذ على نفسه عهداً باتخاذ عروس جديدة لنفسه كل ليلة ثم قتلها، وهي إحدى القصص الأدبية الفارسية الرائعة التي ترجمت إلى اللغة العربية في العصر العباسي.

ثالثاً: تطبيق المنهج البنيوي على النص الأدبي "إلياذة الجزائر" لمفدي زكريا "نموذجاً"

تعد "إلياذة الجزائر" من أهم النصوص الأدبية الجزائرية المعاصرة، وقد كان هذا النص محور دراسات بنيوية عديدة من طرف العديد من الباحثين في مجال النقد الأدبي في الجزائر وغيرها من البلدان العربية، لأن هذا النص يجمع بين الشعر الملحي والرمز الوطني والبنية اللغوية الغنية، ما يسمح بتحليل

عميق من منظور بنيوي، وسنحاول من خلال هذه الدراسة تقديم ملخص تطبيقي لهذه القراءات البنيوية لهذا النص:

طبيعة النص: «إلياذة الجزائر» قصيدة طويلة (أكثر من ألف بيت)، كتبها مفدي زكريا لتمجيد تاريخ الجزائر وثورتها، لكن من منظور المنهج البنيوي، لا ننظر إلى الشاعر أو الظروف السياسية، بل إلى النص بوصفه بنية لغوية مغلقة تتكوّن من مجموعة أنظمة دلالية وإيقاعية. البنية اللغوية (المعجم والدلالات): يهيمن في النص معجم البطولة والخلود: (الفداء، البطولة، المجد، النصر، الشهادة)، ويتجاوز معه معجم الأرض والهوية: (الجزائر، المغرب، الأطلس، الصحراء، المتوسط)، وتظهر شبكة لغوية تتكرر وتتشابك بين هذه الحقول، مما يخلق نظامًا دلاليًا داخليًا يوحد النص. مثال: جزائرُ يا مطلعَ المعجزاتِ ... ويا حجةَ الله في الكائناتِ، هنا تتقابل مفردات القداسة (المعجزات، الله) مع مفردات الهوية (الجزائر) لتولّد دلالة أن الوطن ليس جغرافيا فقط، بل كيان مقدّس.

البنية الإيقاعية والصوتية: الوزن والقافية الموحدة يخلقان نظامًا إيقاعيًا ثابتًا يعكس الصلابة والوحدة، وهي خصائص تتناغم مع موضوع الهوية الوطنية، والتكرار الصوتي لمقاطع مثل "الجزائرُ" و "يا" يُنتج إيقاع النداء والتقديس، مما يعزز البنية الشعرية للنص، والنظام الإيقاعي هنا ليس زخرفًا أدبيا بل عنصر بنيوي يكوّن المعنى.

البنية الدلالية (الثنائيات الضدية): البنية العميقة للنص تقوم على منظومة من الثنائيات الضدية، وهي محور التحليل البنيوي، مثل: الاستعمار / الحرية (تشكل محور الصراع البنيوي)، الموت / الخلود (تتحول الشهادة إلى خلود)، الماضي / الحاضر (الماضي مصدر قوة للحاضر)، الإنسان / الأرض (اتحاد رمزي في مفهوم الوطن والمواطنة، المادة / الروح (الجزائر كفكرة سماوية تتجاوز الواقع المادي)، فالمعنى البنيوي يتولد من علاقة جدلية بين الفعل الإنساني والإرادة الإلهية، وهي علاقة بنيوية متكررة في القصيدة.

البنية السردية (الملحمية): ينتظم نص إلياذة وفق بنية سردية تاريخية تبدأ ب الماضي المجيد، تمرّ ب الاستعمار والمأساة، وتنتهي ب التحرر والنصر، فالجزائري هنا هو الفاعل الجماعي الذي يخوض الصراع وينتصر، ما يعطي النص بنية "التحول" من العبودية إلى الحرية.

العلاقات الداخلية في النص: العلاقة بين الإنسان والتاريخ ليست خارجية، بل داخل نص إلياذة تتحول الجزائر إلى ذات ناطقة، إلى "بطل" لغوي، فمفدي زكريا لا يقول "نحن حررنا الجزائر"، بل يجعل الجزائر نفسها تتكلم، هذا التحول السردى هو بنية لغوية دالة على وحدة الوطن والإنسان، فعندما

يقول: جزائر! يا جنة المشرقين ... ويا قبلة العاشقين الأباة، فهو يجعل الوطن متكلمًا ومخاطبًا في الوقت نفسه، مما يؤسس بنية "الذات-الآخر" داخل النص ذاته.

البنية العميقة (النظام الرمزي): من خلال تحليل العلاقات السابقة، يمكن القول إن البنية العميقة لإلياذة الجزائر هي بنية الخلاص والتحوّل: من الظلم إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الاستعمار إلى الحرية، وهذه البنية تولد دلالة مركزية هي: الجزائر كيان خالد يتجدد عبر الألم والبطولة.

الخلاصة البنيوية لهذه الدراسة التطبيقية: على المستوى اللغوي فإن المضمون البنيوي يتجسد في شبكة من الألفاظ المقدسة والوطنية تتقاطع لتنتج قداسة الوطن، أمّا على المستوى الإيقاعي فإن المضمون البنيوي يعكسه النظام الصوتي الذي يوحد المعنى ويؤسس لشعور القداسة والوحدة، وأمّا على المستوى الدلالي فإن المضمون البنيوي يتمثل في الثنائيات الضدية التي أنتجت المعنى وخلقت حركة داخل النص، وعلى المستوى السردى، فإن الرحلة من الانكسار إلى الخلاص تمثل البنية العميقة، وعلى المستوى الرمزي فإن المضمون البنيوي يعكسه مفهوم الوطن باعتباره الكائن المقدس، والخلود كثمرّة للقداء، وعليه يمكن القول من منظور المنهج البنيوي، أنّ "إلياذة الجزائر" ليست مجرد مدح للوطن، بل نظام لغوي مغلق يحوّل التاريخ إلى بنية أسطورية تتأسس على مفاهيم التحول والتقديس والخلود، يصبح الوطن معها نصًا أسطوريًا لغويًا قائمًا بذاته.

رابعاً: قراءة نقدية في أسس واجراءات المنهج البنيوي

لقد أثار المنهج "البنيوي" الكثير من الجدل في الأوساط الفلسفية والأدبية والنقدية في العالمين الغربي والعربي، فما هي أهم الانتقادات التي وجهت له؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار البنيوية منهجاً يمكن تطبيقه في دراسة النصوص العربية بخصوصيتها الثقافية؟

وُجّهت للبنيوية انتقادات شديدة، من حيث أسسها الفلسفية أو باعتبارها منهجاً للعلوم الإنسانية أو منهجاً نقدياً "للنصوص الأدبية"، فمن الناحية الفلسفية اعتبرها غالبية النقاد فلسفة إلحادية باعتبارها استمراراً لفلسفة نتشه القائمة على فكرة "موت الإله"، بل يذهب النقاد إلى اعتبارها أكثر خطورة منها، فهي على حد تعبير المفكر الفرنسي روجيه غارودي: «إنّ مفهوم البنية، في أيامنا هذه، يحمل فلسفة تمثل، في طبعها الدوغمائية، نقطة الوصول لفلسفة "موت الإنسان"» (غارودي، 1979، ص، 13)، لأنها فلسفة تبشر بفكرة "نهاية الإنسان"، كما يرى غارودي أن البنيوية لا تصلح كمنهج لعلوم الإنسان، ويقول في هذا السياق منتقداً فوكو: «يتراءى لي أن فوكو يميل، أكثر من مفكر سواه، إلى اختزال علوم الإنسان إلى علوم صنائع الإنسان، بل أنه يدرس هذه الصنائع، المتبلورة في بُنى، وكأنها ليست من صنع أحد، إن هذا الإقصاء للإنسان هو، في خاتمة التحليل، حجر الزاوية في فكر فوكو» (غارودي، 1979، ص، 42، 43).

كما وجهت للبنيوية انتقادات شديدة باعتبارها منهجا نقديا للتصوص "الأدبية"، وهنا وجب التذكير أن البنيوية رفضت المناهج السياقية (التاريخية والاجتماعية والنفسية) التي تركز على الظروف المحيطة بالنص، وركزت على النسق اللغوي للنص من الداخل تحت شعار "لا شيء غير النص" إذ «أتجه البنيويون منذ البداية إلى استبدال المؤلف بالنقاد، فالفراغ الذي ولده "موت المؤلف" في المشروع البنيوي شغله الناقد البنيوي الذي لبس مُسوح الإبداع، ورفع شعارات اللغة الشارحة أو الميتالغة، والنقد الشارح أو الميتانقد» (حمودة، 1989، ص، 250)، وهذا معناه أن المنهج البنيوي يقطع الصلة بين النص "الأدب" والمجتمع، لأنه يتعامل مع النص كبنية لغوية فقط، ويعزل هذا النص عن أية سياقات خارجية، بل هو أكثر من ذلك يمكن اعتباره منهجا لا إنسانيا، لأنه يقصي المؤلف وإبداعه، باعتباره يتأسس على فكرة "موت المؤلف" كما يؤمن بذلك رولان بارت: «إن المؤلف في المنظور البنيوي قد مات، وأنه لا مكان في النص لقصدية مؤلف لا وجود له، وأن النص مغلق ذاتي الدلالة، ووظيفة الناقد البنيوي هي انطاق النص، حتى ولو كان ذلك يعني انطاقه بأشياء ليست موجودة فيه، إن ما يحدث هنا حقيقة الأمر ليس مجرد انطاق، بل إنه عملية تعذيب حقيقي للنص الإبداعي وإرغامه على الإفضاء بأسراره، أو ما هو أسوأ، على الاعتراف الكاذب، وقد كانت النتائج الفعلية للنقد الأدبي الذي قام به البنيويون فظيعة بما فيه الكفاية، كل ذلك باسم عملية النقد الأدبي» (حمودة، 1989، ص، 247).

ويعد المفكر العربي عبد العزيز حمودة صاحب الكتاب الشهير "المرآيا المحدبة" من أشد المنتقدين لهذا المنهج والمعارضين لاستخدامه في قراءة وتفسير النصوص العربية، إذ اشتهر برفضه استخدام هذا المنهج في تفسير النص "الأدبي" العربي نظرا لاختلاف المرجعية الثقافية والفلسفية له عن المرجعية الثقافية والفلسفية العربية، ويقول في هذا السياق: «كان الموقف مع البنيوية العربية، أو بالأحرى، البنيوية الغربية في نسختها العربية، أسوأ حالا وأكثر استفزازا، فإلى جانب العوامل المشتركة السابقة التي ورثها الناقد البنيوي العربي، كانت له أزمته الخاصة به، وهي أزمة مصطلح نقدي يُزَع من تربة ثقافية ليُزَع في تربة ثقافية غريبة عليه» (حمودة، 1989، ص، 250، 251)، ويضيف عبد العزيز حمودة نقده للمناهج المستوردة من الثقافة الغربية منتقدا النقاد والباحثين والدّارسين العرب الذين حاولوا ركوب هذه الموجة: «لقد فشل النقاد العرب وخاصة في تجلياتهم البنيوية والتفكيكية، في نحت مصطلح نقدي جديد خاص بهم تمتد جذوره في واقعنا الثقافي العربي، كما أنهم فشلوا في تنقية المصطلح الوافد من عوالقه الثقافية الغربية، ونحن لا نتحدث عن المصطلح النقدي الغربي في حد ذاته، أو عن أزمة نقله وترجمته إلى العربية، لكننا نتحدث عن المناخ الفكري والاجتماعي والسياسي الذي أنتج هذا

المصطلح، وهو المناخ الذي يمثل الخلفية المرجعية الدائمة للمصطلح النقدي من ناحية، ويفسره ويمنحه شرعية من ناحية أخرى، وهنا تكمن الأزمة الحقيقية للنقاد العرب» (حمودة، 1989، ص. 54).

لقد استخدم البنيويون منهجهم هذا في قراءة وتفسير النصوص الأدبية تحت شعار "علمية النقد"، أي تطبيق مبادئ المنهج العلمي لتحقيق درجة مقارنة موضوعية للنص الأدبي تماثل موضوعية التعامل مع النص العلمي في الفيزياء أو الكيمياء مثلاً، ولكن سرعان ما تحولت العملية إلى صعوبة بالغة أعجزت البنيويين عن تحقيق هدفهم في مقارنة النص: «إن أخطر التهم التي توجه للمشروع البنيوي ترى أن العلمية أدت إلى اختزال أو تصغير النص بصورة أفقدت التحليل العلمي القدرة على تحقيق المعنى» (حمودة، 1989، ص. 251)، ومن أسباب فشل المشروع البنيوي كمنهج لقراءة النصوص الأدبية نجد كذلك: «صعوبة تطوير نموذج بنيوي موحد للتعامل مع جميع الأنواع الأدبية، أضف إلى ذلك أن البنيويين أنفسهم لم يستطيعوا الاتفاق على نموذج بنيوي واحد، حتى عند تحليل الأشكال السردية» (حمودة، 1989، ص. 249)، وكل هذه الأسباب وغيرها، فتح الباب واسعاً أمام انهيار البنيوية ووقوعها في أزمة، على غرار بقية التيارات الفلسفية والمناهج النقدية المعاصرة، ومجمل القول: «إن أزمة البنيوية التي وأدتها في أقل من عقد تقريباً تتمثل في فشلها في تحقيق المعنى، وقد اجتمعت عليها عدة عوامل من داخلها هي جعل بعض أقطابها يتحولون عنها "مثل بارت"، المهم أن البنيوية كانت تحمل بذور تفتيتها منذ البداية ولا نستطيع أن ننحني باللائمة على أي قوى خارج المشروع نفسه، تضافرت عوامل كثيرة إذن على إفشال البنيوية في تحقيق هدفها الأساسي، وهو مقارنة النص الأدبي وإنارته من داخله، وهو هدف نبيل ومشروع في حد ذاته، لكن ما حدث أنه لا المقاربة ولا الإنارة تحققتا» (حمودة، 1989، ص. 249، 250)، ومجمل القول حول نقد المنهج البنيوي، هو أن هذا المنهج فشل حتى في عقرداره، أي، في أوربا، وانتهى تقريباً سنة 1970 لتحل محله التفكيكية، أو عصر ما بعد البنيوية.

خاتمة: على ضوء ما سبق نستنتج:

- أن البنيوية لها أبعاد مختلفة: البعد اللغوي والنقدي "دي سوسير ورولان بارت"، والبعد التحليلي النفسي "جاك لكان"، والبعد الفلسفي "كانط وميشال فوكو"، والأنثروبولوجي "كلود ليفي ستراوس".
- أن المنهج البنيوي يركز على قراءة وتفسير النص "الأدبي" من الداخل من خلال لغته بعيداً عن السياقات، وهي فكرة تنتهك حقوق الإبداع لصاحب النص، وأحدثت فجوة عميقة بين الكاتب والمجتمع، وأدت إلى القطيعة بين الأدب والمجتمع، لأنها أنهت الوظيفة الاجتماعية للأدب.
- أن البنيوية ترى أن المعنى ثابت ومستقر في النص، ويمكن الوصول إليه من خلال إجراءات نقدية موضوعية تسمح للقارئ من تقديم معنى للنص بعد قراءة هذا النص في إطار نسقه اللغوي الداخلي.

- في البنيوية كل قارئ يصل إلى معنى حسب خلفيته ومرجعياته الثقافية.
- إن البنيوية ترى أن لأي نص نظام لغوي، بحيث تعد اللغة هي المركزية الثابتة والسلطة المطلقة، وتعطي الأولوية للكلام على الكتابة من خلال اعتقادها أن "الكلام أقدم من الكتابة".
- أن البنيوية نقلت المعنى من السياق إلى البنية.
- من الصعب جدا تطبيق المنهج البنوي على النص الأدبي العربي لاختلاف المرجعيات الثقافية بين الأدب العربي والأدب الغربي.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابراهيم زكريا، (د.ت) مشكلة البنية، سلسلة مشكلات فلسفية 8، مكتبة مصر.
- بارت رولان، (1988)، النقد البنوي للحكاية، ترجمة أنطوان أبوزيد، منشورات عويدات، ط1، بيروت.
- بارت رولان، (1993)، درس السميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء.
- جعفر عبد الوهاب، (1989)، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو، دار المعارف، الإسكندرية.
- حمودة عبد العزيز، (1989)، المرايا المحدبة "من البنيوية إلى التفكيك"، سلسلة عالم المعرفة (232)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- ستروك جون، (1996)، البنيوية وما بعدها من شتروس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، 206، الكويت.
- غارودي روجيه، (1978)، البنيوية "فلسفة موت الإنسان"، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، ط1، بيروت.
- كولي جوناثان، (2016)، رولان بارت "مقدمة قصيرة"، ترجمة سامح سمير فرج، مؤسسة هنداوي، مصر.
- Strauss C.Lévi, (1968), « L'origine des manières de table », in Mythologiques I I I, Pion.
- Strauss C.Lévi,(1973), « Jean-Jacques Rousseau, fondateur des sciences de l'homme », in Anthropologie structurale, I I, Pion.
- Kant, (1979), Anthropologie du point de vue pragmatique, trad. M. Foucault, Vrin.